**القسم الثالث : من البعثة الى الهجرة**

**مراحل الدعوة الإسلامية فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام**

**مرت الدعوة الإسلامية فى حياته عليه الصلاة والسلام منذ بعثته الى وفاته بأربع مراحل :**

**المرحلة الأولى : الدعوة سراً، واستمرت ثلاث سنوات.**

**المرحلة الثانية : الدعوة جهراً، وباللسان فقط، دون قتال واستمرت الى الهجرة.**

**المرحلة الثالثة : الدعوة جهراً مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشر واستمرت هذه المرحلة الى عام صلح الحديبية.**

**المرحلة الرابعة : الدعوة جهراً مع محاربة كل من وقف فى سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول فى الإسلام - بعد فترة الدعوة والإعلام - من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيين.**

**وكانت هذه المرحلة هى التى استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية، وحكم الجهاد فى الإسلام.**

**الدعوة سرا**

**بدأ النبى صلى الله عليه وسلم يستجيب لأمر الله، فأخذ يدعو الى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، ولكنه كان يدعو الى ذلك سراً حذراً من وقع المفاجأة على قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنيتها، فلم يكن عليه الصلاة والسلام يظهر الدعوة فى المجالس العمومية لقريش، ولم يكن يدعو إلاّ من كانت تشده إليه صلة قرابة أو معرفة سابقة.**

**وكان في أوائل من دخل الإسلام من هؤلاء خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وعلى ابن ابى طالب، وزيد ابن حارثة مولاه عليه الصلاة والسلام ومتبناه، وأبو بكر ابن أبى قحافة، وعثمان ابن عفان، والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد ابن ابى وقاص... وغيرهم رضى الله عنهم جميعا.**

**فإن هؤلاء يلتقون بالنبى سراً وكان أحدهم إذا أراد ممارسة عبادة من العبادات ذهب الى شعاب مكة يستخفى فيها عن أنظار قريش. ثم لما أربى الذين دخلوا فى الإسلام على الثلاثين - ما بين رجل وامرأة - إحتار لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أحدهم، وهو الأرقم ابن ابى الأرقم، ليلتقى بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم، وكانت حصيلة الدعوة فى هذه الفترة ما يقارب الأربعين رجلا وامرأة دخلوا فى الإسلام، عامتهم من الفقراء والأرقاء وممن لا شأن له بين قريش.**

**العبر والعظات :**

**1- وجه السرية فى بدء دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم :**

**لا ريب أن تكتم النبى صلى اله عليه وسلم فى دعوته الى الإسلام، خلال هذه السنوات الأولى، لم يكن بسبب الخوف على نفسه، فهو حينما كلف بالدعوة ونزل عليه الوحى وقوله تعالى : ( يا أيها المدثر قم فأنذر ) علم أنه رسول الله الى الناس، وهو لذلك كان يوقن بأن الإله الذى ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادر على أن يحميه ويعصمه من الناس، على أن الله عز وجل لو أمره من اول يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علناً، لما توانى عن ذلك ساعة، ولو كان يتراءى له فى ذلك مصرعه.**

**ولكن الله عز وجل ألهمه - والإلهام للرسول نوع من الوحى - أن يبدأ الدعوة فى فترتها الأولى، بسرية وتكتم، وأن لا يلقى بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيصيخ لها ويؤمن بها، تعليماً للدعاة من بعده، وإرشاداً لهم الى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التى ينبغى أن تتخذ من أجل الوصول الى غايات الدعوة وأهدافها، على أن لا يتغلب كل ذلك على الإعتماد والإتكال علىالله وحده وعلى ألا يذهب الإنسان فى التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى التأثير والفعالية فى تصوره وتفكيره، فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى، فضلا عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة الى الإسلام. ومن هنا تدرك، أن أسلوب دعوته عليه الصلاة والسلام فى هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبياً.**

**وبناءاً على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية، فى كل عصر أن يستعملوا المرونة فى كيفية الدعوة - من حيث التكتم والجهر، أو اللين والقوة - حسبما تقتضيه الظروف وحال العصر الذى يعيشون فيه، وهى مرونة حددتها الشريعة الإسلامية، إعتماداً على واقع سيرته صلى الله عليه وسلم، ضمن الأشكال والمراحل الأربعة التى سبق ذكرها، على أن يكون النظر فى كل ذلك الى المصلحة للمسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية.**

**ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب عليهم الظن أنهم سيقتلون من غير أى نكاية فى أعدائهم، إذا ما أجمعوا قتالهم، فينبغى أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس، لأن المصلحة المقابلة وهى مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع.**

**ويقرر العز ابن عبد السلام حرمة الخوض فى مثل هذا الجهاد قائلا : ( فإذا لم تحصل النكاية وجب الإنهزام، لما فى الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وارغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة، ليس فى طيها مصلحة )**

**قلت : وتقديم مصلحة النفس هنا، من حيث الظاهر فقط.**

**أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد، فإنها فى الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضى- فى مثل هذا الحال - أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكى يتقدموا ويجاهدوا فى الميادين المفتوحة الأخرى، وإلا هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين نفسه وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل.**

**و الخلاصة أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها ولا يجوز الإسرار فى الدعوة إذا أمكن الجهر بها بها وكان ذلك مفيداً، ولا يجوز المسالمة مع الظالمين والمتربصين بها إذا توفرت أسباب القوة والدفاع عنها، ولا يجوز القعود عن جهاد الكافرين فى عقر دارهم إذا ما توافرت وسائل ذلك وأسبابه.**

**2- الأوائل الذين دخلوا فى الإسلام والحكمة من إسراعهم الى الإسلام قبل غيره :**

**وتحدثنا السيرة أن الذين دخلوا فى الإسلام فى هذه المرحلة كان معظمهم خليطا من الفقراء والضعفاء والأرقاء فما الحكمة من ذلك ؟ وما السر فى أن تأسس الدولة الإسلامية على أركان مثل هؤلاء الناس ؟.**

**والجواب أن هذه الظاهرة هى الثمرة الطبيعية لدعوة الأنبياء فى فترتها الأولى، ألم تر الى قوم نوح كيف كانوا يعيرونه بأن أتباعه الذين من حوله ليسوا إلا من أراذل الناس ودهمائهم : ( ما نراك إلا بشرا مثلنا، وما نراك إتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ) هود 27، والى فرعون وشيعته كيف كانوا يرون أتباع موسى أذلاء مستضعفين، حتى قال الله عنهم بعد أن تحدث عن هلاك فرعون وأشياعه : ( وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ) الأعراف 137، وإلى ثمود الذين أرسل الله إليهم صالحاً، كيف تولى عنه الزعماء المستكبرون، وآمن به الناس المستضعفون، حتى قال الله فى ذلك : ( قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنّا بما أرسل به مؤمنون، قال الذين استكبروا إنّا بالذى آمنتم به كافرون ).**

**والسر فى ذلك أن حقيقة هذا الدين الذى بعث الله به عامة أنبيائه ورسله إنما هى الخروج عن سلطان الناس وحكمهم الى سلطان الله وحكمه وحده، وهى حقيقة تخدش أول ما تخدش ألوهية المتألهين وحاكمية المتحكمين وسطوة المتزعمين، وتناسب أول ما تناسب حالة المستضعفين والمستذلين والمستعبدين. فيكون رد الفعل أمام الدعوة الى الإسلام لله وحده وهو المكابرة والعناد من أولئك المتألهين والمتحكمين، والإذعان والإستجابة من هؤلاء المستضعفين، وانظر، فإن هذه الحقيقة تتجلى بوضوح فى الحديث الذى دار بين رستم قائد الجيش الفارسى فى وقعة القادسية، وربعى ابن عامر الجندى البسيط فى جيش سعد ابن أبى وقاص فقد قال له رستم : ما الذى دعاكم الى حربنا والولوع بديارنا ؟ فقال : جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده، ثم نظر الى صفوف الناس الراكعين عن يمين رستم وشماله، فقال متعجباً : ( لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولكنى لا أرى قوماً أسفه منكم، إننا معشر المسلمين لا يستعبد بعضنا بعضا، ولقد ظننت أنكم تتواسون كما نتواسى، وكان أحسن من الذى تصنعون أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض....... )**

**فالتفت المستضعفون بعضهم الى بعض يتهامسون : صدق والله العربى.......**

**أمّا القادة والرؤساء فقد وجدوا فى كلام ربعى هذا ما يشبه الصاعقة أصابت كيانهم فحطمته، وقال بعضهم لبعض : ( لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه ).**

**ولا يعنى هذا الكلام أن المستضعفين الذين أسرعوا الى الإسلام قبل غيرهم لم يكن دخولهم فيه عن إيمان بل عن قصد ورغبة فى التخلص من أذى المستكبرين وسلطانهم. ذلك لأن الإيمان بالله وحده والتصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، كان قدرا مشتركا بين زعماء قريش ومستضعفيها، فما منهم أحد إلا وهو يعلم صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يخبر عن ربه، غير أن الزعماء والكبراء فيهم كانت تصدهم زعامتهم عن الإنقياد والإتباع له، وأجلى مثل على ذلك عمه أبو طالب. وأما الفقراء والمستضعفون فما كان ليصدهم عن التجاوب مع إيمانهم والإنقياد له عليه الصلاة والسلام شىء، أضف الى ذلك ما يشعر به أحدهم عند إيمانه بألوهية الله وحده من الإعتزاز به وعدم الإكتراث بسلطان غير سلطانه أو قوة غير قوته، فهذا الشعور الذى هو ثمرة الإيمان بالله عز وجل، يزيد فى نفس الوقت قوة ويجعل صاحبه فى نشوة وسعادة غامرة.**

**ومن هنا تعلم عظم الفرية التى يفتريها بعض محترفى الغزو الفكرى فى هذا العصر، حينما يزعمون بأن الدعوة التى قام بها محمد صلى الله عليه وسلم، إنما هى من وحى بيئته العربية نفسها، وأنها إنما كانت تمثل حركة الفكر العربى إذ ذاك. فلو كان ذلك كذلك، لما كان رصيد هذه الدعوة خلال ثلاث سنوات من بدايتها أربعون رجلا وامرأة، عامتهم من الفقراء والمستضعفين والموالى والأرقاء، وفى مقدمتهم أخلاط من مختلفى الأعاجم : صهيب الرومى، وبلال الحبشى.**

**وسوف تجد فى البحوث القادمة أن بيئته العربية نفسها هى التى أرغمته على الهجرة من بلاده وأرغمت أتباعه من حوله على التفرق هنا وهناك والخروج الى بلاد الحبشة مهاجرين وذلك كراهية منها للدعوة التى زعموا أنه إنما كان يمثل بها نوازعها وأفكارها.**

**الجهر بالدعوة**

**قال ابن هشام : ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من النساء والرجال حتى فشى ذكر الإسلام بمكة وتحدث به، فأمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق، وأن يبادى الناس بأمره وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه. ثم قال الله له : ( فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ) وقال له : ( وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن إتبعك من المؤمنين وقل إنى أنا النذير المبين ).**

**وحينئذ بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذ أمر ربه، فاستجاب لقوله تعالى ( فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ) بأن صعد الى جبل الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهر، يا بنى عدىّ، حتى إجتمعوا، ةفجعل الذى لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر : ما هو ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا ما جربنا عليك كذباً، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب تباً لك سائر اليوم.. ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى ( تبت يدا أبى لهب وتبّ ). ثم نزل الرسول صلى الله عليه وسلم فاستجاب لقوله تعالى ( وأنذر عشيرتك الأقربين ) بأن جمع من حوله ذويه وأهل قرابته وعشيرته، فقال يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، يابنى مرة ابن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد مناف : أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لك من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلاها.**

**وكان رد فعل قريش أمام جهره بالدعوة، أن أدبروا عنه وتنكروالدعوته معتذرين بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا الدين الذى ورثوه عن آبائهم وأصبح من تقاليد حياتهم وحينئذ نبههم الرسول صلى الله عليه وسلم الى ضرورة تحرير أفكارهم وعقولهم من عبودية الإتباع والتقليد، واستعمال العقل والمنطق، وأوضح لهم أن آلهتهم التى يعكفون على عبادتها لا تفيدهم أو تضرهم شيئا، وأن توارث آباءهم وأجدادهم لعبادتها ليس عذرا فى إتباعهم بدون دافع إلا دافع التقليد، كما قال الله عز وجل فى حقهم :( وإذا قيل لهم تعالو الى ما أنزل الله وإلى الرسول، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ) !؟**

**فلما عاب آلهتهم، وسفه أحلامهم، وجرّ إعتذارهم عن تمسكهم بعبادة الأصنام بأنها تقاليد آباءهم وأجدادهم، الى وصف آباءهم بعدم العقل - أعظموا الأمر، وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وإلا عمه أبا طالب الذى حدب عليه، ومنعه، وقام دونه.**

**العبر والعظات :**

**فى هذا المقطع من سيرته عليه الصلاة والسلام دلالات ثلاث نجملها فيما يلى :**

**أولا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما صدع بالدعوة الى الإسلام فى قريش وعامة العرب فاجأهم بما لم يكونوا يتوقعونه أو يألفونه، تجد ذلك واضحا فى رد أبى لهب عليه، ثم فى إتفاق معظم المشركين من زعماء قريش على معاداته ومقاومته، وفى ذلك الرد القاطع على من يحاولون تصوير هذا الدين بشرعته وأحكامه ثمرة من ثمار القومية، ويدعون أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما كان يمثل بدعوته التى دعا إليها آمال العرب ومطامحهم فى ذلك الحين.**

**وليس الباحث يحاجة الى أن يتعب نفسه بأى رد أو مناقشة لهذه الدعوى المضحكة عندما يطّلع على سيرته صلى الله عليه وسلم، فالذين يروجون لها بين الناس هم أول من يعلم سخفها وبطلانها، ولكنها على كل حال دعوى لابد منها فى نظرهم من أجل إزاحة الدين وسلطانه عن سبيل المبادىء والأفكار الأخرى، فليس المهم أن تكون الدعوى صحيحة حتى يمكن الترويج لها، ولكن المهم أن تكون مصلحتهم وأغراضهم تتطلب ترويج ذلك وادعاءه، ولعلك لم تنس ما ذكرناه مفصلا فى المقدمة الخامسة بصدد هذا الموضوع.**

**ثانيا : كان من الممكن أن لا يأمر الله رسوله بإنذار عشيرته وذوى قرابته خاصة، إكتفاءاً بعموم أمره الآخر وهو قوله : ( ( فاصدع بما تؤمر ) إذ يدخل أفراد عشيرته وذوو قرابته فى عموم الذين سيصدع أمامهم بالدعوة والإنذار، فما الحكمة من خصوصية الأمر بإنذار عشيرته الأقربين ؟**

**والجواب أن فى هذا إلماحاً الى درجة المسئلوية التى تتعلق بكل مسلم عموماً وأصحاب الدعوة خصوصاً.**

**فأدنى درجة فى المسئولية هى مسؤولية الشخص عن نفسه، ومن أجل إعطاء هذه الدرجة حقها استمرت فترة إبتداء الوحى تلك المدة الطويلة الى رأيناها، أى ريثما يطمئن محمد صلى الله عليه وسلم الى انه نبى مرسل، وأن ما ينزل عليه إنما هو الوحى من الله عز وجل فيؤمن هو بنفسه أولا ويوطن ذاته لقبول كل ما سيتلقاه من مبادىء ونظم وأحكام.**

**أما الدرجة التى تليها، فهى مسؤولية المسلم عن أهله ومن يلوذون به من ذوى قرباه وتوجيها الى القيام بحق هذه المسئولية خصص الله الأهل والأقارب بضرورة الإنذار والتبليغ بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به، وهذه الدرجة من المسؤولية يشترك فى ضرورة تحمل أعباءها كل مسلم صاحب أسرة أو قربى، وليس من إختلاف بين دعوة الرسول فى قومه ودعوة المسلم فى أسرته بين أقاربه، إلا أن الأول يدعو الى شرع جديد منزل عليه من الله تعالى، وهذا يدعو بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى بعث إليه، فهو يبلغ عنه وينطق بلسانه، وكما لا يجوز للنبى أة الرسول فى قومه أن يعقد عن تبليغهم ما اوحى إليه، فكذلك لا يجوز لرب الأسرة أن يقعد عن تبليغ أهله وأسرته ذلك، بل يجب أن يحملهم على إتباع ذلك حملا ويلزمهم به إلزاما.**

**أما الدرجة الثالثة، فهى مسئولية العالم عن حيّه وبلدته، ومسئولية الحاكم عن دولته وقومه، وكل منهما ينوبان فى ذلك مناب الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ هما الوارثان الشرعيان له لقوله عليه الصلاة والسلام : العلماء ورثة الأنبياء، ولتسمية الإمام والحاكم خليفة، أى خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. على أن العلم والدراية من لوازم الإمام والحاكم فى المجتمع الإسلامى، فليس من خلاف بين طبيعة المسئولية المنوطة برسول الله صلى الله عليه وسلم والمنوطة بالعلماء والحكام فى الإتساع والشمول. إلا أن الرسول كما قلنا يبلغ شرعا جديداً يوحى إليه من الله تعالى، أما هؤلاء فيمشون على قدمه ويهتدون بهديه ويلتزمون سنته وسيرته فيما يفعلون ويبلغون.**

**و إذاً فقد كان صلى الله عليه وسلم يتحمل المسؤولية تجاه نفسه بوصف كونه مكلفاً، وكان يتحمل المسئولية تجاه أسرته وأهله بوصف كونه رب أسرة وذا آصرة وقربى، ثم كان يتحمل المسئولية تجاه الناس كلهم بوصف كونه نبيا ورسولا مرسلا من الله عز وجل.**

**ويشترك مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الأولى كل مكلف، وفى الثانية كل صاحب أسرة، وفى الثالثة العلماء والحكام.**

**ثالثا : عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه أن يأسروا أنفسهم للتقاليد الموروثة عن آبائهم وأجدادهم دون تفكر منهم فى مدى صلاحها وفسادها، ودعاهم الى تحرير عقولهم من أسر الإتباع الإعمى وعصبية التقاليد التى لا تقوم على شى ءمن أساس الفكر والمنطق.**

**وفى هذا دليل على أن مبنى هذا الدين - بما فيه من عقائد وتشريعات - إنما هو على العقل والمنطق، وأن المتوخى فى التمسك به إنما هو مصلحة العباد العاجلة والآجلة، ولذلك كان من أهم شروط صحة الإيمان بالله وما يتبعه من امور إعتقادية أخرى أن يقوم على أساس من اليقين والفكر الحر، دون أدنى تأثر بأى عرف أو تقليد، حتى قال صاحب جوهرة التوحيد فى أرجوزته المعروفة :**

**فكل من قلد فى التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد**

**ومن هنا تعلم أن الدين جاء حرباً على التقاليد، والدخول فى أسرها، إذ هو قائم فى كل مبادئه وأحكامه على أساس العقل والمنطق السليمين، على حين أن التقاليد قائمة على مجرد باعث الإقتداء والإتباع، أى دون أن يكون فيه لعنصر البحث والتفكير الحر أى تأثير، إذ أن كلمة التقاليد إنما تعنى، فى وضع اللغة العربية وما تواضع عليه عرف علماء افجتماع ( مجموعة العادات التى يرثها الآباء عن الأجداد، ا, التى تسرى بمجرد عامل الإحتكاك فى بيئة من البيئات أو بلدة من البلدان بشرط أن يكون عامل التقليد المجرد هو العصب الرئيسى الذى يمد فى تلك العادات من أجل الحياة والبقاء ).**

**فجميع ما اعتاده الناس من أنماط الحياة فى مجتمعاتهم، ومن مظاهر اللهو فى أفراحهم، ومن أشكال الحداد فى مآسيهم وأحزانهم، مما حاكته عوامل التوارث القديم أو الإقتباس التلقائى عن طريق التأثر والإحتكاك جميع ذلك يسمى فى إصطلاح اللغة وعلم الإجتماع ( تقاليد ).**

**إذا علمت هذا، أدركت أن الإسلام لا يمكن أن ينطوى على شىء مما يسمى بالتقاليد، سواء ما كان منه متعلقا بالعقيدة أو مختلف النظم والأحكام، إذ العقيدة قائمة على أساس العقل والمنطق، والأحكام قائمة على أساس المصالح الدنيوية والأخروية وهى مصالح تدرك بالتفكير والتدبّر الذاتى وإن قصر عن إدراكها فهم بعض العقول لبعض العوارض والأسباب.**

**وإذا تبين لك هذا، أدركت مدى خطورة الخطيئة التى يقع فيها من يطلقون كلمة ( التقاليد الإسلامية ) على مختلف ما يتضمنه الإسلام من عبادات وأحكام تشريعية وأخلاقية.**

**إذ من شأن هذه التسمية الظالمة وترويجها أن توحى الى الأذهان أن قيمة السلوك والخلق الإسلامى ليست بسبب كونه مبدأ إلهيا يكمن فيه سر سعادة البشر - كما هو الحق - وإنما سبب أن كلا من النظام والخلق الإسلامى إنما هو عادات قديمة موروثة من الآباء والأجداد، ولا ريب أن النتيجة القطعية لهذا الإيحاء أن يضيق أكثر الناس ذرعاً بهذا الميراث القديم الذى يراد فرضه على المجتمع فى عصر كل ما فيه متطور ومتقدم وجديد، والواقع أن إطلاق هذا الشعار على الأحكام الإسلامية، ليس فى مصدره خطيئة عفوية، وإنما هو حلقة فى سلسلة حرب الإسلام بالشعارات الباطلة المدسوسة.**

**فالغرض الأول من ترويج كلمة ( تقاليد إسلامية )، هو أن يؤتى بمعظم نظم الإسلام وأحكامه، ويسدل فوقها شعار ( التقاليد ) حتى إذا مر على ذلك زمن، وارتبط معنى التقاليد بنظم الإسلام وأحكامه فى أذهان الناس، ونسوا أن هذه النظم إنما هى فى حقيقتها مبادىء قائمة على أساس ما يقتضيه العقل والبحث السليم - أصبح من السهل على أعداء الإسلام أن يحاربوه من النقطة التى تنفذ إليها حرابهم وسهامهم، إذ لا ريب أن المسلمين إذا استفاقوا ليجدوا معظم مبادىء الإسلام وأحكامه، كشؤون الزواج والطلاق، وحجاب المراة وصيانتها، وعامة قضايا السلوك والأخلاق - قد أسبل عليها رداء التقاليد، فإن من الطبيعى أن يجدوا بعد ذلك من يدعو الى نبذ التقاليد والخروج عن إسارها وكسر قيودها، خصوصا فى هذا العصر الذى أصبحت السيادة فيه لحرية الرأى والتفكير.**

**ولكن الحقيقة أن الإسلام لا تقاليد فيه.**

**إنه الدين الذى جاء ليخلص العقل من براثن التقاليد، كما رأينا فى أولى خطوات الدعوة التى قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.**

**إن جميع ما أتى به الإسلام من نظم وتشريعات، إنما هى مبادىء والمبدأ هو ما يقوم على أساس من التفكير والعقل، ويستهدف الوصول الى مقصد معين، وإذا كانت المبادىء البشرية قد تخطىء الصواب أحياناً لشذوذ فى أفكار أصحابها، فإن مبادىء الإسلام لا تخطىء الصواب أبداً لأن الذى شرعها هو خالق العقول والأفكار، وفى هذا وحده دليل عقلى كاف للإقتناع بهذه المبادىء واليقين بوجاهتها وصوابها. أما التقاليد، فإنما هى تلك التيارات السلوكية التى ينجرف فيها الناس تلقائياً بمجرد باعث المحاكاة والتقليد لدى الإنسان.**

**المبادىء هى الخط الذى يجب أن ينضبط بها تطور الزمن، لا العكس.**

**والتقاليد هى مجموعة الطفيليات التى نبتت تلقائياً وسط الحقول الفكرية للمجتمع فهى الحشائش الضارة التى لابد من إجتثاثها وتنقية سبيل التفكير السليم عنها.**

**الإيـــــذاء**

**ثم إن قريشاً اشتدت فى معاداتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، اما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد لاقى من إيذائهم أنواعاص كثيرة، من ذلك ما رواه عبد الله ابن عمرو بن العاص أنه قال : بينا النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل ابو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال ك أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟. ومنه ما رواه عبد الله ابن عمر قال : بينا النبى صلى الله عليه وسلم ساجد وحوله ناس من قريش، جاء عقبة ابن أبى معيط بسلا جزور فقذفه على ظهر النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة رضى الله عنها فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك، ومنه ما كانوا يواجهونه به من فنون الهزء والغمز واللمز كلما مشى بينهم أو مر بهم فى طرقاتهم أو نواديهم.**

**ومنه ما رواه الطبرى وابن اسحاق أن بعضهم عمد الى قبضة من التراب فنثرها على راسه وهو يسير فى بعض سكك مكة، وعاد الى بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهى تبكى ورسول الله يقول لها : يا بنية لا تبكى فإن الله مانع أباك.**

**وأما اصحابه رضوان الله عليهم، فقد تجرع كل منهم ألواناً من العذاب، حتى مات منهم من مات تحت التعذيب وعمى من عمى، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شيئاً، ويطول البحث لو ذهبنا نسرد نماذج من العذاب الذى لاقاه كل منهم، ولكنا ننقل هنا ما رواه الإمام البخارى عن خبّاب ابن الأرتّ أنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردةً وهو فى ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت يا رسول الله : ألا تدعو لنا ؟ فقعد وهو محمر الوجه، فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف إلا الله.**

**العبر والعظات :**

**أول ما قد يخطر فى بال المتأمل، حينما يرى قصة ما لقيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين، من صنوف العذاب والإيذاء، هو أن يتساءل : فيم هذا العذاب الذى لقيه النبى وأصحابه وهم على الحق ؟ ولماذا لم يعصمهم الله عز وجل منه وهم جنوده وفيهم رسوله يدعون الى دينه ويجاهدون فى سبيله.**

**والجواب أن أول صفة للإنسان فى الدنيا، أنه مكلف، أى أنه مطالب من قبل الله تعالى بحمل ما فيه كلفة ومشقة، وأمر الدعوةالى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله تعالى، إذ لا معنى للعبودية لله تعالى إن لم يكن ثمة تكليف، وعبودية الإنسان لله عز وجل ضرورة من ضرورات ألوهيته سبحانه وتعالى، فلا معنى للإيمان بها إن لم ندرك عبوديتنا له.**

**فقد إستلزمت العبودية - إذاً - التكليف، واستلزم التكليف تحميل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء، ومن أجل هذا كان واجب عباد الله فى هذه الدنيا تحقيق أمرين إثنين :**

**أولهما : التمسك بالإسلام وإاقمة المجتمع الإسلامى الصحيح.**

**ثانيهما : سلوك السبل الشاقة إليه واقتحام المخاطر وبذل المهج والمال من أجل تحقيق ذلك.**

**أى أن الله عز وجل كلفنا بالإيمان بالغاية، وكلفنا الى جانب ذلك بسلوك الوسيلة الشاقة الطويلة الى هذه الغاية مهما بلغت المسألة فى خطورتها وصعوبتها.**

**ولو شاء الله لجعل السبيل الى إقامة المجتمع الإسلامى بعد الإيمان به سهلاً معبداً، ولكن السير فى هذه السبيل لا يدل حينئذ على شىء من عبودية السالك لله تعالى وعلى أنه قد باع حياته وماله له عز وجل يوم أن أعلن الإيمان به، وعلى أن جميع أهوائه تابعة ومنقادة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولأمكن حينئذ أن يلتقى على هذه الجادة المؤمن والمنافق والصادق والكاذب، فلا يتمحص الواحد منهم عن الآخر، وإذاً فإن ما يلاقيه الدعاة الى الله تعالى والمجاهدون فى سبيل إقامة المجتمع الإسلامى، سنة إلهية فى الكون منذ فجر التاريخ تقتضيها حكم ثلاث :**

**أولا : صفة العبودية الملازمة للإنسان، لله عز وجل، وصدق الله إذ يقول : ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ).**

**ثانياً : صفة التكليف المتفرعة عن صفة العبودية، فما من رجل أو إمرأة يبلغ أحدهما عاقلا سن الرشد، إلا وهو مكلف من قبل الله تعالى بتحقيق شرعة الإسلام فى نفسه وتحقيق النظام الإسلامى فى مجتمعه، على أن يتحمل فى سبيل ذلك كثيراً من الشدة والأذى، حتى يتحقق معنى التكليف.**

**ثالثاً : إظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين، فلو ترك الله تعالى الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله تعالى على السنتهم فقط، لاستوى الصادق والكاذب، ولكن الفتنة والإبتلاء، هما الميزان الذى يميز الصادق عن الكاذب، وصدق اللهالقائل فى محكم كتابه :( ألم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولو آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين ) العنكبوت 1،2 والقائل :( أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ).**

**وإذا كانت هذه هى سنة الله فى عباده، لفن تجد لسنةالله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا حتى مع أنبيائه وأصفيائه، من أجل ذلك أوذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوذى من قبله الأنبياء جميعاً والمرسلين، ومن أجل ذلك أوذى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمى من عمى، رغم عظيم فضلهم وجليل قدرهم عند الله عز وجل.**

**فإذا أدركت طبيعة العذاب الذى يلقاه المسلم فى طريقه الى إقامة المجتمع الإسلامى، علمت أنه ليس فى حقيقته عقبات أو سدود تصد السالك أو المجاهد عن بلوغ الغاية، كما قد يتوهم بعض الناس، بل هو سلوك فى الطريق الطبيعى الذى خطه الله تعالى بين المسلم والغاية التى أمره بالمسير إليها، أى أن المسلمين يتقربون الى الغاية التى كلفهم الله بالوصول إليها، بمقدار ما يجدونه فى طريقهم الى ذلك من العذاب، وبمقدار ما يتساقط منهم من الشهداء.**

**ولذا فإنه لا ينبغى للمسلم أن يتوهم اليأس، إذا ما عانى شيئاً من المشقة أو المحنة، بل العكس هو الأمر المنسجم مع طبيعة هذا الدين أى أن على المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيداً من الضر والنكبات سعياً الى تحقيق أمر ربهم عز وجل.**

**( أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب ) فقد كان جواب أولئك الذين لم يفهموا طبيعة العمل الإسلامى، وتوهموا أن هذا الذى يرونه من الأذى والعذاب إنما هو عنوان ودليل على إبتعادهم عن النصر - كان جواب هؤلاء من الله تعالى : ألا إن نصر الله قريب.**

**وتجد برهان هذا جلياً فيما رويناه من قصة خباب بن الأرثّ رضى الله عنه، حينما جاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقد غالبه العذاب الذى إكتوى به معظم جسده، يشكو إليه صلى الله عليه وسلم ويسأله الدعاء للمسلمين والنصر، فقد كام جواب الرسول صلى الله عليه وسلم له بهذا المعنى، إن كنت تتعجب من العذاب وألأذى وتستغرب أن ترى ذلك فى سبيل الله عز وجل فاعلم أن هذا هو السبيل... وتلك هى سنة الله فى جميع عباده الذين آمنوا به : مشط الكثير منهم فى سبيل دينه بأمشاط الحديد ما بين المفرق والقدم فما صدهم ذلك شىء من دين الله.**

**وإن كنت ترى فى العذاب دلائل اليأس والقنوط من النصر، فأنت متوهم، بل الحق هو أن تجد العذاب والألم سيراً فى الطريق ودنوّا من النصر، وسينصرن الله هذا الدين حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخشى إلا الله وفى رواية زائدة : والذئب على غنمه.**

**وهذا المعنى نفسه هو السر فى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشّر أصحابه بأن الله سيفتح لهم بلاد فارس والروم، ومع ذلك فلم تفتح هذه البلاد عليهم إلا بعد وفاته عليه الصلاة والسلام بزمن غير يسير ولقد كان من مقتضى فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه ومدى محبة الله عز وجل له أن يفتح كل تلك البلاد فى حياته وبقيادته وتحت إشرافه، بدلا من أن يسجل التاريخ فتحها بقيادة أحد أتباعه صلى الله عليه وسلم. لقد كان هذا قريباً من محبة الله لرسوله، لولا أن النصر مرتبط بالقانون الذى ذكرناه.**

**لم يكن المسلمون فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قد دفعوا من اجل إنتصارهم فى بلاد الشام والعراق أقساط الثمن كله، ولابد قبل النصر من دفع كامل الثمن، لابد من ذلك ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم موجوداً بينهم، وليست المسألةأن ترتبط الفتوحات باسم الرسول صلى الله عليه وسلم وتتم بقيادته وتحت إشرافه من اجل عظيم محبة الله تعالى له، ولكن المسألة هى أن يبرهن المسلمون الذين بايعوا الله ورسوله على صدقهم فى هذه البيعة، وأن يصدقوا فيما عاهدوا الله عليه يوم أن وقعوا بالقبول والرضى تحت قول الله تعالى: ( إن الله إشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون).**

**سياسة المفاوضات**

**جاء فيما يرويه ابن هشام عن ابن اسحاق أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً ذا بصيرة ورأى فى قومه - قال فى نادى قريش : يا معشر قريش، ألا أقوم الى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمور لعله يقبل بعضها فنعطيه أيّها شاء ويكف عنا ؟ فقالوا بلى يا أبا الوليد : قم إليه فكلمه، فجاء عتبة حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يابن أخى، إنك منا حيث علمت من الشرف فى العشيرة والمكانة فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم.... فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قل يا أبا الوليد أسمع.**

**قال يابن أخى : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم.... قال فاسمع منى، ثم قال :( بسم الله الرحمن الرحيم، حم، تنزيلمن الحمن الرحيم، كتاب فصلت أياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذ1يراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا فى أكنّة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه، وويل للمشركين ) ثم مضى رسول الله فى القراءة وعتبة يسمع حتى وصل الى قول الله تعالى ( فإن أعرضوا فقد أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ) فأمسك عتبة بفيه وناشده أن يكف عن القراءة، وذلك خوفا مما تضمنته الآية من تهديد، ثم عاد عتبة الى أصحابه فلما جلس بينهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائى أنى سمعت قولا ما سمعت بمثله قط والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.... يا معشر قريش أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم.**

**قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال هذا رأى فاصنعوا ما بدا لكم.**

**وروى الطبرى وابن كثير وغيرهما أن نفرا من المشركين فيهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل جاؤوا فعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه المال حتى يكون أغناهم وأن يزوجوه أجمل أبكارهم على أن يترك شتم آلهتهم وتسفيه عاداتهم، فلما رفض إلا الدعوة الى الحق الذى بعث به، قالوا نعبد إلهك يوماً وتعبد آلهتنا يوما، فرفض ذلك أيضا ونزل قوله تعالى : ( قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين ).**

**ثم إن أشراف قريش عادوا فكرروا المحاولة التى قام بها عتبة ابن ربيعة فذهبوا إليه مجتمعين، وعرضوا عليه الزعامة والمال، وعرضوا عليه الطب إن كان هذا الذى يأتيه رئيا من الجن، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل علىّ كتاباً، وأمرنى أن أكون بشيراًونذيراً فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم.**

**فقالوا له : فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل امءاً ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا وليفجر لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن بعث لنا منهم قصىّ ابن كلاب، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل وليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبغى.... فإ، صنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول، فقال لهم : ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا، ثم إنهم قالوا له - بعد طول كلام وخصام - إنا قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل فى اليمامة يقال له الرحمن، وأنّا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وأنّا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلك أو تهلكنا. ثم قاموا وانصرفوا عنه.**

**العبر والعظات :**

**فى هذا المشهد الذى عرضناه من سيرته صلى الله عليه وسلم ثلاث دلائل كل واحدة منها على جانب كبير من الأهمية :**

**الدلالة الأولى : وهى توضح لنا فى تمحيص دقيق حقيقة الدعوة التى قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم وتفصلها عن كل ما قد يلتبس بها من الأهداف والأغراض التى قد يضمرها فى أنفسهم عادة أرباب الدعوات الجديدة والمنادون بالثورة والإصلاح.**

**هل النبى صلى اله عليه وسلم يضمر من وراء دعوته الوصول الى ملك ؟ أو لعله يضمر الوصول الى مستوى رفيع من الزعامة أو الغنى، أو لعل الأمر لا يعدو خيالات تتراءى له بسبب مرض يعانيه ؟.**

**كل هذه الإحتمالات، وسائل قد يتذرع بها محترفوا الغزو الفكرى وأعداء هذا الدين ولكن يا لأسرار الحياة العظيمة التى هيأها رب العالمين لرسوله !.... لقد ملأ الله عز وجل حياة رسوله بالمواقف والمشاهد التى تقطع دابر كل إحتمال، وتقطع السبيل الى كل وسواس، وتدع أرباب الغزو الفكرى حيارى فى الطريقة التى ينبغى لهم أن يسلكوها فى حربهم الفكرية.**

**كان من جليل حكمةالله تعالى أن يقوم مشركوا قريش بسلسلة من المفاوضات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن صوروا فى أنفسهم كل هذه الإحتمالات، وهم أدرى الناس بطبيعة دعوته والغاية البعيدة من رسالته وبأنه لن ينزل عند شىء من مغرياتهم، ولكن هكذا أرادت الحكمة الإلهية حتى ينطق التاريخ بتكذيب كل من سأتى من محترفى الغزو الفكرى والتشكيك مع الزمن.**

**لقد فكر أمثال كريمر وفان فلوتن طويلا.... ثم لم يجدوا من سبيل لأداء مهمة التشكيك والغزو إلا أن يغمضوا أعينهم عن الحقيقة ويزعموا أن دوافع محمد عليه الصلاة والسلام فى دعوته إنما كانت الرغبة فى السيادة والملك، وإن صدموا رؤوسهم فى هذا الزعم بصخور عاتية تقذفهم وتردهم الى الوراء أشواطاً. لقد سخر الله من قبلهم عتبة ابن ربيعة وأمثاله، لحمل هذه الدوافع والآمال ووضعها بين يدى محمد صلى الله عليه وسلم لينالها قريبة سائغة وليبصر قريش كلها وقد دانت له وألقت من يدها ما رفعته من السلاح ووسائل التعذيب فى وجهه ووجه أصحابه، فلماذا لم يلن الرسول لهم، ولم يتحول الى هذه الغنيمة التى سيقت إليه ما دام أنها الدافع له من وراء رسالته ودعوته ؟.**

**وهل ينصت طالب الملك والزعامة لمن سعى يعرضهما عليه، فى مفاوضة طويلة وتخويف وتهديد ورجاء، ليقول لهم أخيرا : ( ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً..... فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم ).**

**ثم إن معيشته الحياتية كانت مطابقة لكلامه هذا، فلم يعرض عن الملك والزعامة بلسانه، ليصل إليهما خلسة بسعيه وعمله، بل كان صلى الله عليه وسلم بسيطا فى مأكله ومشربه , ولا يعلو عما عليه حال الفقراء والمساكين. قالت عائشة رضى الله عنها فيما يرويه البخارى ( لقد توفى النبى صلى الله عليه وسلم وما فى رفّى من شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رفّ لى فأكلت منه حتى طال علىّ ) ويقول أنس رضى الله عنه فيما يرويه البخارى أيضا : لم يأكل النبى صلى الله عليه وسلم على خوان حتى مات، وما أكل خبزاً مرققا حتى مات ).**

**وكان بسيطا للغاية فى ملبسه وأثاث بيته، يؤثر فى جنبه الحصير وما عرف أنه نام على شىء وثير، حتى إن نساءه جئن إليه يوما وفيهن السيدة عائشة رضى الله عنها يشتكين الفاقة ويطالبنه بمزيد من النفقة لزينتهن ولباسهن حتى لا تكون إحداهن أقل شأناً من مثيلاتها من نساء الصحابة، فأطرق ولم يجب، ثم نزل قول الله تعالى : ( يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما )، فتلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهن هاتين الآيتين، ثم خيرهن بين قبول العيش معه على الحالة التى هو فيها، أو الإصرار على مطالبهن من النفقة وزيادة الزينة والمال وحينئذ يفارقههن ويسرحهن سراحاً جميلا، فاخترن العيش معه على ما هو عليه.**

**فكيف يشك العقل - أى عقل - بعد هذا كله فى صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكيف يصح أن يتوهم الفكر او الخيال بأنه قد يكون مدفوعا برغبة الزعامة أو الطمع فى الغنى ؟ فهذه هى الدلالة الأولى التى تؤخذ من هذا المشهد الذى ذكرناه.**

**الدلالة الثانية : وهى تبين لنا معنى الحكمة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمسك ويتصف بها. هل الحكمة أن تضع أنت السياسة التى تراها فى سير الدعوة مهما كانت كيفيتها ومهما كان نوعها ؟ وهل أعطاك الشارع صلاحية أن تسلك أى سبيل أو وسيلة تراها ما دام هدفك من وراء ذلك هو الحق ؟**

**لا...... إن الشريعة الإسلامية تعبدتنا بالوسائل كما تعبدتنا بالغايات. فليس لك أن تسلك الى الغاية التى شرعها الله لك إلا الطريق المعينة التى جعلها الله وسيلة إليها وللحكمة والسياسة الشرعية معان معتبرة، ولكن فى حدود هذه الوسائل المشروعة فقط.**

**والدليل ما رويناه آنفا، فقد كان من المتصور فى باب الحكمة والسياسة الشرعية أن يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم بالزعامة والملك على أن يجمع فى نفسه إتخاذ الملك والزعامة وسيلة الى تحقيق دعوة الإسلام فيما بعد، خصوصاً وأن للسلطان والملك وازعاً قوياً فى النفوس، وحسبك أن أرباب الدعوات والمذاهب ينتهزون فرصة الإستيلاء على الحكم كى يستعينوا بسلطانه على فرض دعوتهم ومذاهبهم على الناس. ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لم يرض مثل هذه السياسة والوسيلة الى دعوته، لأن ذلك ينافى مبادىء الدعوة نفسها.**

**لو جاز أن يكون مثل هذا الأسلوب نوعا من أنواع الحكمة والسياسة الرشيدة، لإنمحى الفرق بين الصادق الصريح فى صدقه والكاذب الذى يخادع فى كذبه ولتلاقى الصادقون فى دعوتهم مع الدجالين والمشعوذين على طريق واحدة عريضة إسمها : الحكمة والسياسة.**

**إن فلسفة هذا الدين تقوم على عماد الشرف والصدق فى كل من الوسيلة والغاية، فكما أن الغاية لا يقوّمها إلا الصدق والشرف وكلمة الحق، فكذلك الوسيلة لا ينبغى أن يخطّها إلا مبدأ الصدق والشرف وكلمة الحق، ومن هنا يحتاج أرباب الدعوة الإسلامية فى معظم حالاتهم وظروفهم الى التضحية والجهاد لأن السبيل التى يسلكونها لا تسمح لهم بالتعرج كثيراً ذات اليمين وذات الشمال.**

**ومن الخطأ أن تحسب مبدأ الحكمة فى الدعوة إنما شرع من أجل تسهيل عمل الداعى أو من أجل تفادى المآسى والأتعاب، بل السر فى مشروعية الحكمة فى الدعوة إنما هو سلوك أقرب الوسائل الى عقول الناس وأفكارهم، وعنى هذا أنه إذا إختلفت الأحوال وقامت عثرات الصد والعناد دون سبيل الدعوة، فإن الحكمة حينئذ إنما هى إعداد العدة للجهاد والتضحية بالنفس والمال، إن الحكمة هى أن تضع الشىء فى مكانه.وهذا هو الفرق بين الحكمة والمخادعة، وبين الحكمة والمسالمة.**

**وأنت خبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما إستبشر بما رآه من دلائل إقبال بعض زعماء قريش على فهم الدين، إنصرف إليهم بكليته مبتهجاً يكلمهم ويشرح لهم ما يستفسرون عنه من حقائق الإسلام، حتى دعاه ذلك الإستبشار والطمع فى هدايتهم الى أن يعرض عن الصحابى الضرير عبد الله ابن أم مكتوم حينما مر بهم فوقف الى جانبهم يستمع، وأخذ هو الآخر يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك منه عليه الصلاة والسلام حرصاً على الفرصة أن لا تفوته وأملا فى أن يجيب عبد الله ابن أم مكتوم فى أى وقت آخر، فعاتبه الله على ذلك فى سورة : ( عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى ) وأنكر عليه إجتهاده هذا،وإن كانت غايته مشروعة ونبيلة، ذلك لأن الوسيلة قد إنطوت على كسر خاطر مسلم أو ما يدل على الإعراض عنه وعدم الإلتفات إليه من أجل إجتذاب قلوب المشركين فهى ليست بمشروعة ولا مقبولة.**

**والخلاصة أنه ليس لأحد من الناس أن يغير شيئا من أحكام الإسلام ومبادئه، أو يتجاوز شيئاً من حدوده أو يستهين بها، باسم إتباع الحكمة فى النصيحة والدعوة لأن الحكمة لا تعتبر إلا إذا كانت مقيدة ومنضبطة ضمن حدود الشريعة ومبادئها وأخلاقها.**

**الدلالة الثالثة : ونستفيدها من موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من تلك المطالب التى طلبتها قريش منه صلى الله عليه وسلم شرطاً لإتباعها إياه، وهو موقف أيده الله فيه، ففيه كما ذكر عامة المسلمين نزل فيه قول الله تعالى :( وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ) .**

**وليس السبب فى عدم إستجابة الله لهم ذلك، ما قد يظنه البعض من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما أوتى من المعجزات إلا معجزة القرآن، ولذلك لم يستجب لهم مطالبهم، وإنما السبب أن الله عز وجل علم أنهم إنما يطالبون بذلك كفراً وعناداً وإمعاناً فى الإستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم، كما هو واضح فى أسلوب طلبهم ونوع المطاليب التى عرضوها، ولو علم الله عز وجل فيهم صدق الطلب وحسن النية وأنهم مقبلون فى ذلك على محاولة التأكد من صدق النبى عليه الصلاة والسلام، لحقق لهم ذلك، ولكن أمر قريش فى ذلك مطابق لما وصفه الله تعالى فى آية أخرى وهى قوله تعالى :( ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ) وإذا علمت ذلك أدركت أنه لا تنافى بين هذا وما ثبت من إكرام الله لنبيه عليه الصلاة والسلام بالمعجزات الكثيرة المختلفة مما سنفصل القول فيه قريبا ً إن شاء الله.**

**الحصار الإقتصادى**

**ورد بأسانيد مختلفة عن موسى ابن عقبة، وعن ابن اسحاق وعن غيرهما أن كفار قريش أجمعوا امرهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلموا فى ذلك بنى هاشم وبنى المطلب ولكنهم أبوا تسليمه صلى اله عليه وسلم إليهم، فلما عجزت قريش عن قتله صلى الله عليه وسلم أجمعوا على منابذته ومنابذة من معه من المسلمين ومن يحميه من بنى هاشم وبنى المطلب، فكتبوا بذلك كتاباً تعاقدوا فيه على ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم، ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلم بنو المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وعلقوا الكتاب فى جوف الكعبة. والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات، بدءاً من المحرم سنة سبع من البعثة الى السنة العاشرة منها، وقيل استمر ذلك سنتين فقط.**

**ورواية موسى ابن عقبة تدل على أن ذلك كان قبل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى الحبشة، وإنما أمرهم بها أثناء هذا الحصار. أما رواية ابن اسحاق فتدل على أن كتابة الصحيفة كانت بعد هجرة أصحابه صلى الله عليه وسلم الى الحبشة وبعد إسلام عمر.**

**وحوصر بنو هاشم وبنو المطلب ومن معهم من المسلمين، ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعب بنى المطلب، وإنما شعاب مكة متفرقة، واجتمع فيه من بنى هاشم وبنى المطلب المسلمون والكافرون، أما المسلمون فتديناً وأما الكافرون فحمية، إلا ما كان من أبى لهب، عبد العزى ابن عبد المطلب، فإنه خرج الى قريش فظاهر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه.**

**فجهد النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون جهداً شديداً فى هذه الأعوام الثلاث واشتد عليهم البلاء، وفى الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر. وذكر السهيلى أنهم كانوا إذا قدمت العير مكة، يأتى أحد أصحاب رسول الله الى السوق ليشترى شيئا من الطعام يقتاته لأهله، فيقوم أبو لهب فيقول يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع الى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس فى يده شىء يعللهم به.**

**فلما كان على رأس ثلاث سنوات من بدء هذا الحصار، تلاوم قوم من بنى قصى، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه،وأرسل الله على صحيفتهم التى كتب فيها نص المعاهدة الأرضة فأتت على معظم ما فيها من ميثاق وعهد، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التى فيها ذكر الله عز وجل.**

**وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب بذلك، فقال له أبو طالب : أربك أخبرك بذلك ؟ قال نعم، فمضى فى عصابة من قومه الى قريش، فطلب منهم أن يأتوه بالصحيفة موهماً إياهم أنه نازل عند شروطهم فجاؤو بها وهى مطوية، فقال أبو طالب : إن ابن أخى قد أخبرنى ولم يكذبنى قط، أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التى كتبتم الأرضة فأتت على كل ما كان فيها من جور وقطيعة رحم، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا وارجعوا عن سوء رأيكم، فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا وإن كان الذى يقول باطلا دفعنا إليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاؤون، فقالوا قد رضينا بالذى تقول.**

**ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فقالوا هذا سحر ابن أخيك ! وزادهم ذلك بغياً وعدواناً.**

**ثم إن خمسة من رؤساء المشركين من قريش، مشوا فى نقض الصحيفة، وإنهاء هذا الحصار. وهم : هشام ابن عمرابن الحارث، وزهير ابن أمية، والمطعم ابن عدى، وأبو البخترى ابن هشام، وزمعة ابن الأسود.**

**وكان أول من سعى الى نقضها بصريح الدعوة زهير ابن أمية، أقبل على الناس عند الكعبة فقال يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، ثم قال بقية الخمسة نحواً من هذا الكلام، ثم قام المطعم ابن عدى الى الصحيفة فمزقها، ثم انطلق هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة، الى بنى هاشم وبنى المطلب ومن معهم من المسلمين فأمروهم بالخروج الى مساكنهم.**

**العبر والعظات :**

**هذه القطيعة الظالمة، تصور قمة الشدة التى لقيها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه طيلة ثلاثة أعوام، وقد رأيت المشركين من بنى هاشم وبنى المطلب، شاركوا المسلمين فى تحملها، ولم يرضوا أن يتخلوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.**

**وليس لنا من حديث عن هؤلاء المشركين وسبب موقفهم هذا، فقد كان الذى دفعهم إليه حمية القرابة والرحم، وإباء الذل الذى كان يتلبس بهم لو أنهم خلوا بين محمد صلى الله عليه وسلم ومشركى قريش من غير بنى هاشم وبنى المطلب يقتلونه ويفتكون به، بقطع النظر عن العقيدة والدين، فقد آثروا إذاً أن يجمعوا بين رغبتين فى صدورهم :**

**الأولى : الثبات على الشرك والإستكبار على الحق الذى جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم.**

**الثانى : الإنصياع للحمية التى تدعوا الى حماية القريب من بطشة الغريب وظلمه، بحق كان أو باطل.**

**أما المسلمون وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنما صبرهم على ذلك الإنصياع لأمر الله، وإيثار الآخرة على الدنيا، وهو أن الدنيا عندهم فى جنب مرضات الله عز وجل، وهذا ما يهمنا أن نبحث فيه، قد تسمع بعض المبطلين من محترفى الغزو الفكرى يقولون : إن عصبية بنى هاشم وبنى المطلب كانت تكمن خلف دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وتحوطها بالرعاية والحفظ !... والدليل على ذلك موقفهم السلبى من مشركى قريش فى مقاطعتهم للمسلمين .**

**وإنها لمغالطة مكشوفة، لا يتماسك عليها حجاب أى منطق ولو كان صوريا، ذلك لأن من الطبيعى جداً أن تقود الحمية الجاهلية بنى المطلب وبنى هاشم الى الذود عن حياة ابم عمهم عندما تتهددها يد غريبة ويدنوا منها بالسوء شخص دخيل.**

**والحمية الجاهلية إذ تدفع ذوى القربى الى مثل هذا التعصب، لا تنظر الى مبدأ، ولا تتأثر بحق أو بباطل، وإنما هى العصبية ولا شىء غير العصبية، ولذلك أمكن أن يجتمع فى ذوى قرباه صلى الله عليه وسلم صفتان متناقضتان بحسب الظاهر وهما : الإستكبار على دعوته والجحود بها، والإنتصار له ضد سائر المشركين فى قريش.**

**ومع ذلك فأى فائدة حققوها للنبى صلى الله عليه وسلم من وراء إعتصامهم معه ؟ لقد أوذوا كما أوذى هو وأصحابه، ومضت قريش فى قطيعتها للمسلمين بالضراوة والشراسة اللتين أرادتهما دون أن يخفف بنو هاشم أو بنو المطلب من غلوائهما شيئاً.**

**والمهم أن تعلم بأن حماية الأقاربلرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن حماية للرسالة التىبعث بها وإنما كانت حماية لشخصه من الغريب، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية من قبل المسلمين، وسيلة من وسائل الجهاد والتغلب على الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم، فأنعم بذلك من جهد مشكور، وسبيل يتنبهون إليها.**

**أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه المؤمنون، فما الذى كان يمسكهم على هذا الضيق الخانق ؟... وأى غاية كانوا يتأملونها من وراء الثبات على الشدة ؟   
بماذا يجيب على هذا السؤال أولئك الذين يتأولون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإيمان أصحابه به على أنها ثورة يسار ضد يمين أى ثورة الفقراء المضطهدين ضد الأغنياء المترفين ؟**

**تصور هذه السلسلة التى إستعرضناها، من حلقات الإيذاء والتعذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولإصحابه، ثم أجب على ضوئها : كيف يستقيم أن تكون دعوة الإسلام ثورة إقتصادية ألهبها الجوع وقادها الحقد على تجار مكة وأرباب الفعاليات الإقتصادية فيها ؟**

**لقد عرض المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم الملك والثراء والزعامة، على أن يتخلى عن الدعوة الى الإسلام، فلماذا لم يرض عليه الصلاة والسلام بذلك، ولماذا لم يثر عليه أصحابه ولم يضغطوا عليه - وإن غايتهم الشبع بعد الجوع - كى يقبل بعرض قريش ؟ وهل يطمع أصحاب الثورة اليسارية بشىء أكثر من الحكم يكون فى أيديهم والمال يكون فى جيوبهم ؟**

**ولقد قوطع محمد صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه المسلمون عن سبيل كل معايشة إقتصادية وإجتماعية مع بنى قومه، فلم تترك سلعة تتسلل الى أيديهم، ولم يترك طعام يدخل الى بيوتهم، حتى راحوا يأكلون أوراق الشجر، وهم على ذلك صابرون، محدقون برسول الله صلى الله عليه وسلم، أفهكذا يصنع من تعتلج وراء صدره الثورة من أجل لقمة العيش ؟ !..**

**وعندما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة وهاجر إليها من قبله ومن بعده أصحابه، تركوا المال والأرض والممتلكات المختلفة واستقبلوا بوجوههم شطر المدينة المنورة، وقد تجردوا من كل ما يتعلق به الطامعون فى المال، لا يبتغون عن إيمانهم بالله بديلا، ولا يقيمون وزنا لدنيا فاتتهم ولملك أدبر عنهم، أفهذا هو الدليل على أنها ثورة يسارية قامت من أجل لقمة طعام ؟ !..**

**قد يكون دليل هؤلاء الناس على ما يتصورون ملاحظة الأمرين التاليين :**

**الأول : أن الجماعة الأولى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة كانت أغلبيتهم من الفقراء والموالى والمضطهدين، وهو ما يدل على أنهم ينفّسون بإتباعهم محمد صلى الله عليه وسلم عن شىء من كربهم، وإنهم كانوا يتأملون مستقبلا إقتصادياً أفضل لأنفسهم فى ظل الدين الجديد.**

**الثانى : أن هؤلاء الأصحاب ما لبثوا بعد حين أن فتحت عليهم آفاق الدنيا، وأقبل إليهم الثراء والمال، وهو دليل على أن خطة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت ترمى الى تحقيق هذه الغاية، وأنت إذا تأملت فى إستدلالاتهم على ما يتصورونه، بهاتين الملاحظتين أدركت كم هو نصيب الخيال من عقولهم ومنهج تفكيرهم.**

**أما أن الجماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانت على الأغلب من الفقراء والموالى، فنعم، ولكن ليس بين هذه الحقيقة وذلك الوهم أى علاقة أو نسب، إن شريعة تقضى بإرساء العدالة بين الناس، وبالضرب على يد كل ظالم وطاغية متجبر ومستكبر، من المسلم أن يعرض عنها بل أن يحاربها أولئك الذين إستمرؤوا حياة البغى والظلم، لأنها تحملهم المغارم أكثر من أن تقدم إليهم المغانم، كما أن من المسلم به أن يرحب بها كل مستضعف مظلوم، بل كل إنسان ليس له فى تجارة البغى والإستغلال نصيب، لأنها تقدم لهم المغانم أكثر من أن تقدم لهم المغارم، أو لأنهم - على أقل تقدير - ليست لهم مع الناس مشكلات تجعلهم يستثقلون تبعاتها وتكليفاتها.**

**إن معظم من كان حول رسول الله صلى اله عليه وسلم كان مستيقناً أنه على الحق وأنه نبى مرسل، ولكن أرباب الزعامات وعشاق العظمة والسيطرة، وجدوا من طبيعتهم وظروفهم ما أصبح عائقاً لهم عن الإستسلام لهذا الحق والتفاعل معه، أما الآخرون فلم يجدوا ما يعيقهم عن الإستسلام لشىء ىمنوا به واستيقنوه. فما العلاقة بين هذه الحقيقة التى يفهمها كل باحث، وما يزعمه أولئك الزاعمون ؟**

**وأما أن خطة الدعوة الإسلامية التى سلكها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تستهدف إمتلاك المسلمين لمنابع الثروة واستيلائهم على عروش الملك واستيلاب السيادة منهم، بدليل أن المسلمين قد وصلوا فعلاً الى ذلك - فإنه والله أشبه بمحاولة الجمع بين المشرق والمغرب !..**

**إذا كان المسلمون قد تمكنوا من فتح بلاد الروم والفرس، فى حقبة يسيرة من الزمن، بعد أن صدقوا الله فى إسلامهم، أفيكون ذلك دليلاً على أنهم أسلموا طمعاً بعرش الروم والفرس ؟!..**

**لو أنهم أرادوا من وراء إسلامهم الوصول الى شهوة من شهوات الدنيا أياً كانت، لما تحقق لهم ولا الجزء اليسير من معجزة ذلك الفتح.**

**لو كان عمر ابن الخطاب وهو يجهز جيش القادسية ويودع سعد ابن أبى وقاص، يستهدف كنوز كسرى، ويسيل لعابه رغبة فى أن ينقلب فى مثل نعيمه ويجلس على مثل عرشه، لما عاد إليه سعد إلا بأثقال من الخيبة والهوان، ولكنهم صدقوا الله فى الجهاد من أجل نصرة دين الله، فصدقهم فيما أكرمهم به من تمليكهم زمام الحكم وإغنائهم بما لم يكونوا يحلمون.**

**لو كان الحلم الذى يراود المسلمين فى معركة القادسية، وصولاً الى ثروة وتقلباً فى نعيم وتحقيقاً للذائذ العيش إذاً لما دخل ربعى ابن عامر رضى الله عنه سرادق رستم مزدرياً مظاهر الترف التى غمس فيها السرادق غمساً يتوكأ بزج رمحه على البسط والنمارق الفاخرة حتى أفسدها، ولما قال لرستم إن دخلتم الإسلام تركناكم وأرضكم وأموالكم !... أهكذا يقول من جاء ليستلب الملك والأرض والمال ؟**

**لقد أكرمهم الله بمقدرات الدنيا كلها، لأنهم لم يكونوا يفكرون فيها، وإنما كان تفكيرهم منصرفاً الى تحقيق مرضاة الله، ولو كانوا يستهدفون من جهادهم هذه المقدرات لما وصلوا الى شىء منها**

**المسألة بما فيها ليست إلا تحقيقاً للقانون الإلهى الذى يقول :( ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ) ، وأن تفهم هذا القانون لأيسر ما يكون على العقل أى عقل كان، بشرط واحد أن يكون صاحبه حراً عن العبودية لأى رغبة أو غرض .**